

الاستهلاك

الثقافي في المغرب العربي

الملخص

أن مظاهر التسوق في مجتمعنا تأخذ دلالات عديدة، فمنها ما يعتبر نشاطا يوميا لتلبية الحاجات المختلفة للفرد والجماعة، ومنها ما هو نشاط ظرفي أو مناسباتي يرتبط بوضع غير عادي هدفه الأساسي هو التميز في وقت أو مكان أو بشيء ما عن باقي الأوقات والأماكن والناس، وذلك النمط من الاستهلاك يرتبط بمحددات الثقافة التي تطبع المعاملات والتصرفات اليومية للفرد والجماعة، ومن ذلك ما هي حقيقة الاستهلاك الثقافي؟.

إن المجتمع المغربي استهلاكي أكثر منه منتج أو مصنع خاصة على الصعيد الاقتصادي، وقد تأثرت ثقافة الاستهلاك بعوامل كثيرة منها دخول الاستعمار الأجنبي في جميع أقطار الوطن العربي مما تسبب في اختلاط الأجناس وامتزاج الثقافات.

والإعلام بوسائله المختلفة مثل التلفزيون الذي يكون قناة مهمة جعلت الكثير من المجتمعات وخاصة العربية تتشبع بمفاهيم كثيرة، مثل أن أوروبا هي مركز الحضارة وأن الاستهلاك لا ينبغي أن يتوقف وأن لا قيود على الأخلاق فالتلفاز يقوم بعملية الدعاية للقيم المستوردة التي تؤدي حتما الاعتقاد فيها والإقبال عليها، ولا شك أننا نعيشه حضارة تلفزيونية، سواء كانت إيجابية أم سلبية حيث سوف يبلغ التلفزيون في السنوات القادمة مدى أوسع في التأثير على حياتنا وحياة مجتمعنا والعلم أجمع، ولا زال التلفزيون يغرس في صورة الإنسان العربي نسخة عن الإنسان الغربي ويدفعه يستهلك مقومات غربية لا أساس لها في المجتمع العربي.

فمثلا لغة شعوب المغرب العربي تميل للاستعمال اللغة الأجنبية، وتعتبر اللغة عاملا مهما في عملية استهلاك المنتجات المختلفة حيث تساعد على الاطلاع على أهمية وطرق وكيفيات استخدام منتج ما، إضافة إلى الاطلاع على أنماط ثقافية واستهلاكية عند مجتمعات أخرى وفي ممارسات ثقافية أجنبية، فمثلا تقليد الغرب في استعمال بعض المصطلحات الدخيلة على اللغة العربية تعد في نظر العربي من بوادر التحضير والتقدم وإنما في الحقيقة استهلاكها ثقافيا لمفاهيم وطرق تعبير عربية.

العادات والتقاليد في المغرب العربي:

الاحتفال بالأعياد والمناسبات الرسمية وغير الرسمية منها أصبحت ظاهرة متعود عليها في المجتمعات العربية، كأعياد الميلاد وأعياد رأس السنة وعيد الحب وغيرها لكنها في الباطن تحتفل بها الدول الأوروبية والغربية عامة، وهي بعيدة كل البعد عن أصالتنا وتراثنا العربي الذي يقتصر على إحياء المناسبات الدينية كأعياد الفطر والأضحى وغيرها من المناسبات التي تحتفل بها الشعوب العربية.

أما الاحتفال بتلك المناسبات التي تعد غير رسمية فهي في الواقع تتنافى تماما مع ثقافتنا العربية، إنما هي ثقافة مستوردة ظنا من العربي أنه يتماشى مع مستجدات العصر الراهن، ولا يقتصر هذا التماشي على إحياء مثل هذه المناسبات بل وحتى في طريقة اللباس والهيئة وإحياء الحفلات كحفلات الزفاف مثلا.

وهذا التغير في أنماط الاستهلاك داخل المجتمعات المغاربية يعود سببه إلى وسائل الإعلام واتساع شبكة الاتصالات كالإنترنت التي جعلت من العالم قرية صغيرة، غرست في عقول المجتمعات المغربية فكرة النقل والتطبيق واستهلاك مقومات ثقافية تتنافى تماما مع مبادئ العروبة، عوض الابتكار والإبداع الفني كغيره من المجتمعات.

عوامل التراكم الثقافي بالمغرب العربي:

إن الحضارة الأولى التي قامت على الأرض المغربية هي الحضارة الفينيقية، والفينيقيون هم عرب ساميون جاءوا من بلاد الشام وتبعهم اليونانيون والرومانيون، ومكث الرومان في هذه البلاد قرابة ألف عام قبل الفتح العربي الإسلامي الذي جعل من أهل هذا البلد عدته في قيام دولة عربية قوية في المغرب والأندلس، وما أن انهارت تلك الدولة حتى دخلت منطقة المغرب العربي في صراعات مع الأوربيين انتهى بالاحتلال الفرنسي للجزائر وتونس وبعض المغرب والاحتلال الإيطالي للبيبا.

لذلك تتميز المعادلة الثقافية لبلاد المغرب العربي بوجود ثقافات شعبية هي خليط من أصول ثقافات إفريقية شعبية وثقافات غازية مثل الفينيقية واليونانية والرومانية ووجود الفرنسية، وذلك بفعل الاستعمار الذي تمكن من هذه البلاد أكثر من غيرها، أي أن المكونات الثقافية لبلاد المغرب العربي قائمة في شكل طبقات، لم يتم الانصهار بينها ويؤكد ذلك بفعل الاستعمار الذي تمكن من هذه البلاد أكثر من غيرها، أي أن المكونات الثقافية لبلاد المغرب العربي قائمة في شكل طبقات وإثنيات متعددة، وتؤكد ذلك مجموعة الظواهر البارزة في المغرب العربي مثل:

- ازدواجية اللغة
- تعقيد مظاهر الثقافة الشعبية¹ وتنوعها وتشابكها أحيانا
- ازدواجية التعليم
- العلاقة مع البلاد العربية والعلاقة الخاصة مع دول أوروبا وبالذات فرنسا
- امتداد كثير من الظواهر الثقافية والممارسات الدينية في أعماق التاريخ وارتباطها بتأثيرات متنوعة لأجيال وأجناس متعددة.

ورغم أن هذه الملاحظات عامة على دول المغرب الغربي الأربع إلا أن لكل منهم بعض الخصوصيات، فمثلا عند حصول الجزائر على الاستقلال كانت هناك ثقافتان تطورت كل واحدة منها بجانب الأخرى، هما الثقافة الشعبية المنطوية على نفسها ومعزولة في بعض الأقاليم والمقاطعات ومحدودة في مآثر القبائل وعادات العشائر، ولغة متحجرة وجامدة تحولت إلى لهجة إقليمية، وثقافة عصرية جعلت الفرنسية لغتها وعادات وتقاليد الحياة الفرنسية الحديثة هي طابعها، وكان هناك إهمال متعمد من قبل الاحتلال للثقافة الدينية وتبعه تغافل من الحكومات الوطنية بعد الاستقلال عن هذه الثقافة مما دفع مؤخرا على طلب الاهتمام بالعنصر الديني والثقافي في ثقافة المجتمع الجزائري.

خطر الغزو الثقافي والإعلامي على المجتمع العربي:

من الأمور الشائعة المعيبة ويقدمها للاستهلاك في وسائل الإعلام. إن الإعلام الغربي حقيقة ضخمة، كبيرة في حياتنا السياسية والثقافية ولن تنفع محاولات التقليل من شأنه وقدرته على الإساءة إلينا.. إنه قوة هائلة ومذهلة التطور، تغطي القارات الخمس بلا منازع لتزرع في أذهان الشعوب ما تشاء من الصور¹، وتدفع بهم إلى ما تشاء من المواقف، لا تبالي في ما تتناول من أحداث العالم بالعرض والتحليل إلا ما تراه - خطأ أو صوابا - معبرا عن قناعاتها.

وإذا كان الإعلام الغربي قبل خمسين سنة حقق الإعلام بكل أنواعه وتقنياته نجاحا باهرا في جميع المجالات وهو من أقوى وسائل الإقناع الذاتي في أتباع الأسلوب الهادئ والرزين دون اللجوء إلى العنف، لكنه في نفس الوقت أنفذ إلى القلوب من السهام وأشد وقعا على النفوس، إذ له ظاهرا أنيق ومنظر جذاب وهيكل أنحاذ إضافة إلى مجموعات الإثارة الكاملة والمواد الغزيرة والمعلومات المتدفقة إلى ما لا نهاية، وهناك جيش من الأخصائيين الاجتماعيين والنفسانيين والسياسيين والاقتصاديين وبقية الاختصاصات

كالتصوير والإضاءة. فلا بد من تأثيره الفعال ونفاده أي الأعماق بصورة سريعة ومباشرة.

ولكن هل صحيح أن كل ما يقوله الإعلام الغربي عن الإسلام والمسلمين تطاولا وافتراء وأنه من إفرازات (صدام الحضارات) الذي يجاهر به ويدعو إليه ساسة الغرب ومفكروه، وأن الحملات الإعلامية المتعاقبة التي لا يكاد ينجو منها بلد مسلم ليست إلا وجهها من وجوه حرب الإساءة والتشويه التي اعتمدتها سلاحا ماضيا في صراعتها؟

هناك من يرى أن في الإعلام الغربي حقا بعض التحامل علينا، لكنه إعلام لا يختلف الأباطيل، فنحن الذين نغضب لكشفه الأسرار ولا نقبل ما نحن عليه من سوء ين نفتحم الصحافة الغربية ما هو مستور لدينا، بعيدا عن قيود الرقابة والوجيه بعيداً عن الملاحقة وقطع الأرزاق التي قد تطال الصحفي المسلم عندما يتجاوز الحدود..

ولأن المسلمين قد اعتادوا على إعلام رسمي يرضي الحاكم وقد لا يرضي المحكوم فإن الصراحة وكشف الحقائق التي يعالج بها الإعلام الغربي شؤوننا الداخلية تثير في الوقت نفسه أوساط العامة والمثقفين.

وهناك من يرى في الإعلام الغربي طرفا مسكونا بحقده علينا، يغمض عينه عن كل ما هو ايجابي لدينا، يلاحق الصغيرة في حياتنا ليضخمها ويبالغ في تضخيمها، لذلك فإن ثورة الاتصالات قد جعلت منه اليوم يفوق بقدرتنا على الزعزعة والأضرار قدرة الجيوش. لم يكن للصحافة قبل عدة عقود تأثير يتجاوز حدود المحيط الذي تصدر فيه، فما كانت تنشره جريدة صادرة في باريس أو عاصمة أخرى يظل محصورا في قرائها التقليديين، وجاءت أعجوبة الأقمار الصناعية والطباعة عبر الفضاء وشيوع الانترنت لتزيل ما كان قائما من حواجز وعقبات، وأصبحت الأخبار جاهزة لمن يسعى إليها خلال ساعات من صدوره.. وإلى جانب هذا الانبهار يقابله عجز وقصور في الإعلام العربي والمغاربي والإسلامي، فشعوب العالم لا تعرف في معظم الأحوال - عن الإسلام

وقضاياه إلا من الإعلام الغربي مع كثير من النقص والتشويه السهوي أو العمدي، أما الصحافة والإعلام الإسلامي فعاجز ومنغلق على نفسه، بل قد تساعد في كثير من الأحيان الإعلام الغربي لبث السموم والدعايات الفاسدة، وذلك بعجزه عن توفير زاد إعلامي يقدم للاستهلاك.

الهوامش:

- * أحمد إبراهيم حسن وعبد المجيد الخصاصي، تاريخ النظم الاجتماعية والقانونية، الدار الجامعية 1992.
- * أحمد بن نعمان، هذه هي الثقافة، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، الطبعة 1، 1996.
- * أمين سعيد عبد الغني، الثقافة العربية والفضائيات، إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع مطابع الدار الهندسية 2003.
- * العياشي عنصر، نحو علم اجتماع نقدي، ديوان المطبوعات الجامعية 1999.
- * قحطان بدر العبدلي وسمير عبد الرزق العبدلي، الترويج والإعلان، وهران للنشر والتوزيع، الطبعة "3" 1996.
- * مرسى الصباح، دراسات في الثقافة الشعبية، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر الاسكندرية 2000.
- * ليندا دافيدوف، ترجمة نجيب الفوس خرام، السلوك الاجتماعي، الدار الدولية للاستثمارات الثقافية 2000.